بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نادرة هي تلك الحالات التي تشبه حال الأمة العربية في صراعها الطويل والحضاري والدائم مع التحديات التي فرضت عليها . . وأندر من ذلك وجود حالة خرجت فيها أمة أخرى ، غير هذه الأمة ، من مثل صراعها هذا مع تلك التحديات دون ان تفنى او تمسخ هويتها الحضارية وتنطمس معالمها القومية فتصبح امتداداً هامشيا او ذيليا لأعدائها الذين فرضوا عليها ما فرضوا من تحديات . .

فعندما ينظر المرء ، اليوم ، الى خريطة الكوكب الذي نعيش فيه ، ويتجاوز عن خطوط الحدود السياسية التي تمثل الدول ـ وهي تقترب من المائتين ـ ثم يبحث عن الأمم ذات الحضارات المتميزة ، فان الرقم ، ولا شك ، لن يبلغ عدد اصابع اليدين بحال من الأحوال ! . . فاذا ما ذهب المرء ليعيد النظر في أمم هذه الحضارات ذات القسمات المتميزة ، باحثا عن تلك الأمم التي امتلكت حضارتها المتميزة هذه منذ زمن طويل ووقت موغل في التاريخ ؟ . . فان العدد سيهبط كثيرا ، مرة اخرى ! . . فاذا ما أرجع البصر والبصيرة ، كرّةً اخرى ، فتساءل : مَنْ مِنْ هذه الأمم ، ذات الحضارة المتميزة ، والعمق التاريخى المتحضر ، قد امتازت حضارتها ، تاريخيا ، بتعدي الحدود الجغرافية لدول هذه الأمة وامبراطوريتها ؟ . . فان العدد سيهبط مرة ثالثة !! . . فاذا ما

تساءل ، مرة رابعة ، وأخيرة : وأية أمة من بين هذه الأمم العريقة في التحضر ، وصاحبة الحضارة المتميزة ، وذات العطاء العالمي ، تملك اليوم ، وغداً ، أن تعود الى ساحة الحياة الانسانية فتعطي عطاءها الحضاري الانساني من جديد ؟ . . هبط العدد ، واقترب من الحد الأدنى للأعداد !! . . وأيضاً . . فاننا لا بد واجدون الأمة العربية واحدة من أمم هذا العدد القليل ! . .

فحضارة هذه الأمة وهي الحضارة العربية الإسلامية ، قد تبلورت واكتسبت طابعها المتميز وسماتها الخاصة ، بعد سنين غير قليلة من ظهور الإسلام وما أنجزته الفتوحات العربية على الجبهة السياسية، وما تم للمنطقة من توحد ، او تقارب ، عقلي وفكري تم انجازه بعد أن اكتمل لأهلها التعريب . . لكن ذلك الميلاد لم يكن نقطة البدء ، وانما كان طورا جديداً ومتميزاً في تطور حضاري قديم . فشعوب هذه المنطقة جميعاً ، بعقائدها الدينية المختلفة ، واصولها الحضارية المتمايزة ، قد أسهمت اسهاما خلاقا في صياغة هذه الحضارة العربية الاسلامية ، ولم يكن نصيب الذين هاجروا من شبه الجزيرة الى المواطن التي تعربت ، لم يكن نصيبهم في هذه الحضارة بأكبر من نصيب الآخرين . بل لقد اتاح الفاتحون العرب بتمييزهم بين ماهو « دولة » أقامها جيش فاتح في وقت قصير ، على نحو قياسي غير مسبوق في التاريخ . . وبين ما هو « تعريب » وامتزج مع اهل البلاد المفتوحة ، فكرياً وحضارياً ، وهو الأمر الذي استغرق عدة قرون . . أتاح ذلك ان يتم الانجاز الثاني بشكل بطيء ، أي طبيعي . . ومن هنا كانت الثمرة الجديدة ، وهي الحضارة العربية الاسلامية ، محصلة للفكر العربي الشاب والمجدد الذي تمثل في الاسلام ، وللقيم والأفكار والعلوم التي ظلت صالحة للنفع والعطاء والاستلهام من مواريث الأمم والشعوب التي دخلت في الدولة التي صنعتها الفتوحات . . الأمر الذي جعل هذه الحضارة الجديدة حلقة في سلسلة قديمة وعريقة ، هي سلسلة التطور الحضاري لهذه المنطقة ، وجعلها ، كذلك الوارثة لما سبقها من حضارات أبدعتها شعوب هذه المنطقة ، والامتداد المتطور لها . . ومن ثم فلم يكن تبلورها ميلاد حضارة جديدة ، بقدر ما كان طورا جديداً في مسار حضاري قديم وعريق ، سبقت

بداياته أية نشأة لأية حضارة أخرى على هذا الكوكب الذي نعيش فيه .

واذا كانت أمم قليلة جدا تماثل أمتنا في عراقة الحضارة واكتسابها طابعا يميزها عن غيرها من الحضارات ، مثل الحضارة الصينية والهندية واليونانية ، فان من هذه الحضارات من تخلت عنها أمتها ، مثل الحضارة اليونانية ، فقسماتها المتميزة لم تعد ملحوظة اليوم ، بل ومنذ أن لعبت دورها في البعث الاوروبي الحديث ، لقد غدت تراثا لعب دوره في عصر الاحياء وتجاوزته الحضارة الأوروبية المعاصرة . . أما الحضارتان الصينية والهندية ، فهما وان شاركتا الحضارة العربية في العراقة ، وفي احتفاظهما بما يميزهما من قسمات ، وفي وجود أمة عظيمة ،لكل واحدة منهما ، تنطبع بطابعها ، وتمنحها المحبة والولاء الا أن الحضارة العربية تتميز عنهما بطابعها العاملي وعطائها الانساني اللذين تمثلا في الدور الذي قامت به عندما كانت لأمتها كلمة مسموعة ودور بارز في الساحة الدولية ، وهو اختبار ، نجحت فيه ، يترجم عن خصائص ومميزات قد لا تكون في حضارات أخرى ويقوم شاهدا على أن ما حدث بالأمس ليس بعزيز ان يحدث في الغد ، اذا ما توافرت الشروط ولاءمت الظروف واعانت الملابسات ! . .

والأمر الذي يجعل عودة هذه الحضارة الى الساحة الدولية والانسانية ، مرة أخرى ، امرا ممكنا ، لتسهم بعطائها الحضاري المتميز في تجديد حضارة الانسان وتطويرها ، رغم الكاهل العربي المثقل بمواريث التخلف والقصور ، ورغم التحديات التي فرضتها على العرب صراعات العصر الذي نعيشه ، ان تلك التحديات ، والصور المؤسية والمأساوية التي صنعتها وتصنعها بواقعنا الراهن ، ليست جديدة على هذه الأمة ، فلها معها تاريخ ، ولها في تراثها تراث ؟! ومع ذلك ، وبالرغم منه صنعت هذه الأمة ما صنعت ، واعطت ما أعطت ، وتحدت من وما تحدت . . وظلت قائمة ومستمرة ، بل وحية ! . . بل لعل في تداعي الأعداء عليها ، واستمرارهم في التداعي والاعتداء ، ولعل في عنف التحديات وكثرتها : السبب والشاهد والدليل على الأصالة ، والصلاحية الدائمة والمتجددة للعطاء الدائم والمتجدد . . فقط علينا أن نعي انه اذا كان أعداء هذه الأمة ، بما

فرضوا ويفرضون عليها من تحديات يريدون مسخ هـويتها الحضـارية المتميـزة ، والحيلولة دون امتلاكها شروط العودة مرة أخرى الى الساحـة الدوليـة والانسانيـة قوة حضارية ذاتِ عطاء حضاري متميز . . اذا كان هذا هـو أمر الأعـداء ، فان علينا أن نعي قانون صراع هذه الأمة ، تاريخيا ، مع التحديات التي فرضهـا على اسلافنا اسلاف هؤلاء الأعداء ، فلقد نجد في هذا القانون ما يعين عرب اليـوم والغد على الافلات من القيد وكسر عنق الزجاجة وتجاوز الطريق المسدود ، كما أعان هذا القانون عرب الأمس على ذلك . . ومن ثم نفتح الطريق لأمتنا كي تصنع اليوم وغداً ما يجعلنا ، بحق ، خير خلف لهؤلاء الأسلاف العظام .

* * *

ولقد يكون مفيدا ، بل وضروريا ، ان نضع امام العقـل العربي المعـاصر إجابة موضوعية على هذا السؤال :

* لماذا كانت : قديمة ، وشديدة ، ومتنوعة ، ودائمة تلك التحديات التي فرضها أعداء كثيرون على هذه الأمة عبر تاريخها الطويل ؟!

فالفرس، منذ ما قبل الاسلام ، بل ومنذ ما قبل الميلاد، عاثت جيوشهم في المنطقة ، وعبث أكاسرتهم بمقدراتها وامكاناتها وخصائصهـا . . وبلغوا بـذلك قلب مصر حينا ، وأرض اليمن احيانا ، وسواد العراق في اغلب الأحايين .

والاغريق والروم البيزنطيون صنعوا ذلك أيضاً ، فشملت سيـطرتهم سواد المنطقة حينا ، واستقرت بمصر والشام في أغلب الأحيان .

وحتى الأحباش ، من بنـي يكسوم ، صنعوا ذلك مع اليمن ، بل وكـادوا أن ينجحوا حتى في احتواء القلب الصحراوي المقفر ـ وسط شبـه الجزيـرة ـ وهو الـذي ظل بمعـزل عن احتواء الغـزاة وسيطرة المحتلين . . كـادوا أن ينجحوا في ذلك في غزوة الفيل ! . .

ولقد أتى على اسلاف هذه الأمة حين من الدهر فرض فيه الفرس نفوذهم عـلى بوابتهـا الشرقيـة : العراق والخليـج ، واتخذوا قـطاعـا من ابنـائهـا ، وهم اللخميون ، سكان الحيرة ، أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم الطويل

ضد الإغريق والرومان البيزنطيين (٤٩٠ ق . م - ٦٢٧ م) ! . . وفي نفس هذا الحين من الدهر فرض الإغريق ، فالروم البيزنطيون سلطانهم على وسط هذه الأمة وقلبها : مصر ، والشام ، واتخذوا من عرب الشام الغساسنة أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم مع الفرس ، حتى لقد قتل العرب بعضهم بعضا قرب اثينا ، وعلى الدردنيل ، وفي مصر والقدس ودمشق وانطاكية ونينوى ، لحساب كل من الفرس والروم ! . . وفي ذات الحين من الدهر فرض الأحباش سلطانهم على عرب اليمن الحميريين في الجنوب ! . . هكذا من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولم يبق بمنجى من الغزو والاحتواء سوى ذلك القلب القفر الموحش : وسط شبه الجزيرة ، الذي استعصى على الغزو حينا ، وصرف فقره الغزاة عنه حينا آخر . . وصدق الله العظيم عندما يصور العرب يومئذ بالفريسة المرتعدة المرتجفة من المنقضين عليها كالطيور الجارحة التي تناوشها فتنهشها ، وتهجم عليها فتخطفها وتتخاطفها : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾[1] . . . واصاب المفسرون عندما قالوا ان الاشارة هنا الى فارس والروم ، الذين افترسوا العرب وفرضوا عليهم ما يفرض المستبد على التابع من مظالم وتحديات ![2]

هكذا كانت التحديات قديمة . . وهكذا بلغت . . لكن ، مرة أخرى : لماذا ؟؟ . . .

* هل هو الموقع الحاكم لوطن هذه الأمة ؟ . .

صحيح ان هذه المنطقة هي قلب العالم ، وملتقى عدد من قاراته ، ومعبر طرقه ومواصلاته ومن ثم فهي ليست كغيرها من المواطن التي بالوسع تركها في الظل والهدوء . . وأهم من ذلك أنها كانت دائما طريق تجارة العالم القديم كله . . فمن الصين التجارة تأتي على طريق بري يمر بسمرقند وبخارى ومرو

---

(١) الأنفال : ٢٦ .

(٢) انظر القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج٧ص٣٩٤ . طبعة دار الكتب المصرية . و(تفسير البيضاوي) ص ٢٦٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

ونيسابور والري ـ بفارس ـ ثم يعبر شمال العراق الى آسيا الصغرى فأوربا . . . ومن الهند وجزرها كانت تأتي التجارة بحرا الى الخليج العربي ، ثم تتخذ لها عنده طريقين ، يصعد احدهما في الخليج ثم يدخل أرض العراق عند الأبلة فالبصرة ، فشمالا الى ديار بكر ، فآسيا الصغرى ، فأوربا . . . أما الثاني فيتجه بحرا في المحيط الى عدن فمكة ، فدمشق فحمص فحلب ، فآسيا الصغرى ، فأوربا . . أي ان تجارة العالم القديم ما كان لها ان تقوم ولا لأمرها أن ينتظم الا بموطن هذه الأمة ووطنها . . ومن هنا طمحت ، بل وطمعت كل القوى الراغبة في السيطرة بالاستيلاء على هذا الوطن ، فكان أن فرضت على اهله التحديات . . .

لكن هذا السبب لم يكن الوحيد . . . فعندما تقدمت أوربا في الاستكشافات الجغرافية ، وطاف البرتغاليون سنة ١٤٩٨ م بقيادة ڤاسكو دي جاما Vasco -De Jama (١٤٦٩ ـ ١٥٢٤ م) حول افريقيا ، ومروا برأس الرجاء الصالح ، الى الهند وجزرها ، وحولوا طريق التجارة العالمية عن ارض الوطن العربي . . عندما حدث ذلك ، ولم يعد للموقع ما كان له من خطر في التجارة والاقتصاد ، لم يكن ذلك ايذانا بانصراف الطامعين عن هذا الوطن ، بل كان ذلك بدء المرحلة جديدة من الطمع الأكثر شراسة ، وموجة جديدة من التحديات ! . .

* وهل هي ثروة هذا الوطن ؟ . . .

صحيح أن مصر كانت بالنسبة لروما : سلة الخبز ومخزن الغلال . . وصحيح أن لعاب نظم كثيرة وحضارات عديدة يسيل اليوم لما تفجر وما لم يتفجر بعد بهذا الوطن من ثروات . . .

لكن هذا السبب لم يكن هو الوحيد . . . فقبل تفجر ثروات اليوم ، وقبل التنبؤ بما هو كامن في ارضنا من ثروات . . وخلال فترات غير قصيرة من تاريخنا لم تكن ثروات هذا الوطن ملحوظة ولا مغرية بتجشم مصاعب الغزو ومعاناة السيطرة والاستعمار . . ومع ذلك ظلت هذه المنطقة مطمح الطامحين ومطمع الطامعين ! .

* وهل هو ما تمثله هذه المنطقة من دور « الضمير » ؟!. .

لكن . . قبل الأجابة على هذا السؤال ، ماذا نعني بـ « الضمير » ؟. . . .

لقد كانت هذه الأمة مهبط وحتى الديانات السماوية الكبرى الثلاث . . وبمعنى أدق موطن الشرائع الالهية الكبرى للدين الالهي الواحد ، الموسوية - (اليهودية) - ، والعيسوية - (المسيحية)- ، والمحمدية - (الاسلام) - . . ولقد عبرت هذه الشرائع حدود الوطن العربي ، واعتنقتها شعوب أخرى ، ذات حضارات غير عربية ، وطبعت هذه الشرائع بطابعها الحضاري المتميز . . وعلى سبيل المثال ، فان أوربا لم يغير من طمعها في هذا الوطن تدينها بالمسيحية التي جاءتها من هذا الوطن ، فظل عداؤها للعرب ، وهي وثنية ، هو عداؤها لهم وهي مسيحية !. . ذلك أن أوربا ، ذات الحضارة المتميزة بطابعها المادي في الأساس ، قد طوَّعت المسيحية - ديانة السلام المتصوف والصوفية المسالمة - لطابع حضارتها المادي المتميز ، وكما يقول امام المعتزلة قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ هـ ١٠٢٤ م) فان النصرانية عندما دخلت روما لم تنصِّر روما ، ولكن النصرانية هي التي تروَّمت ؟!!! فالقيصر الوثني الذي كان يحكم بسلطان الحق الالهي ، أصبح رأس الكنيسة ، يحكم أيضا بالحق الالهي !. . وبعد أن كان يبيد المسيحيين ، بالحرب الدينية ، اصبح يبيد غير المسيحيين ، أو من لا يتمذهب بمذهبه المسيحي بالحرب الدينية كذلك !. . وكما يقول البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ ٩٧٣ - ١٠٤٨ م) فان القيصر « قسطنطينوس » (٢٧٤ - ٣٣٧ م) المظَّفر ، منذ تنصَّر ، لم يجعل كلاً من السيف او السوط يستريح من الحركة !. . على حين وافق طبع النصرانية طبع الحضارة الهندية ، لما بينهما من شبه في الجوهر والحال . .[1] لقد ظلَّت مسيحية الشرق والعرب نمطا آخر غير الذي تدينت به أوربا ، بل رأتها أوربا كفرا وهرطقة ، فكان عداؤها

---

(١) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ج١ص ١٠٥ ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م. وهو ينقل عن كتاب البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة) . طبعة سخاو - ص ٢٨٠ .

المستمر لهذه المنطقة ، وكان اضطهادها للقبط اليعاقبة قبل الفتح العربي ، التعبير عن عداء « الانحراف » لـ « الضمير » ! . . . واستوى في ذلك حال « المنحرف » وموقفه قبل التدين بالمسيحية وبعدها .

وايضاً . . فالأتراك العثمانيون ـ (والعرب يسمونهم : الأروام !)[1] اعتنقوا الاسلام . . ومن قبلهم صنع ذلك المغول والتتار . . وهم جميعاً قد طوعوا الاسلام لما لحضاراتهم من مميزات ، فرأيناهم يقفون من هذا الدين ، أساسا وغالبا ، عند الشكل والشعائر ، وخاصة الطقوس . . ومن ثم فلقد كانوا جندا سريع الفتح ، وسيفا شديد البتر ، وجحفلا واسع التدمير ، سيان في ذلك حالهم قبل الاسلام في مواجهة اهله ، وبعد الاسلام ، باسمه وتحت بيارقه وأعلامه . . ومن هنا كان الود المفقود غالبا ، ان لم يكن دائما ، بين هذه الامم وبين هذه الأمة التي تمثلت في حضارتها المتميزة خصائص دين الاسلام . . .

إذن . . فنحن أمام سبب آخر ، أساسي وجوهري ، وعندما تضاف اليه أسباب : الموقع ، والثروة ، وما ماثلها . . نضع يدنا على مجموع العوامل التي جعلت من هذا الوطن وهذه الامة مطمع الغزاة دائما وأبدا ، وموضع التحديات الكثيرة المتنوعة والشديدة التي فرضها الأعداء على أمتنا طوال تاريخها الطويل . . وهذا السبب هو الذي يعطي لصراع هذه الأمة مع اعدائها طابعا حضاريا ، رغم تعدد الأعداء ، وتغاير الظروف ، وتبدل الحضارات ، لأنه متمثل في ذلك الطابع المتميز لحضارتنا العربية الاسلامية عن حضارات القوى والأمم التي ناصبتنا العداء .

إن أعداء هذه الأمة ، الذين فرضوا ويفرضون عليها تحديات الأمس واليوم ، لا ينظرون اليها فقط ، نظرتهم الى شعب مستعمر يستغلونه ، ويجاهدون للحيلولة دون تحرره كي لا تفلت من قبضتهم ما لديه من ثروات ، وإنما هم يرون فيه كذلك، بل وقبل ذلك، أمة تمتلك مقومات حضارة متميزة

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي (الأعمال الكاملة) ص ٢٣٨ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

وذات امكانيات للعطاء على المستوى الانساني ، ومن ثم فان انعتاقها من الأسر الاستعماري سيعني، مهما طال الزمن: الوحدة، والنهضة والعودة مرة أخرى طرفا مشاركا ، بل ومزاحما في نادي الأمم ذات الحضارة والعراقة والنفوذ ! . . ومن ثم فان على ابناء هذه الأمة ان يدركوا ، بوعي وعمق ، ان أمتنا لا تنشد حريتها وتقدمها ووحدتها لتضيف ، فقط إلى معسكر الأحرار أمة جديدة تقف في « طابور » الأمم الكثيرة المتحررة ، وانما لتعود من جديد إلى مواصلة العطاء الحضاري ، بل ولتقفز الى صدارة الأمم التي مارست هذا اللون من العطاء عبر تاريخ الانسانية الطويل ! . . فالهدف ليس فقط ، تحرير الأرض واستخلاص الثروة وامتلاك سبل العصرية ومناهج التقدم . . وانما الهدف هو ، ايضا ، توظيف كل ذلك في سبيل بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة ، تمكينا لها من العودة ثانية كي تعطي حضاريا ، على نحو أكثر استنارة وفاعلية وغنى مما كانت عليه في عصور ازدهارها التي شهدت عطاءها القديم . . .

* * *

لكن . . هل حقا لهذه الأمة ، في الحضارة ، ما يميزها عن غيرها من الحضارات ؟! . .

إن الاجابة السريعة ـ التي لا تدخل بهذه الصفحات إلى بحوث الحضارة ـ تكفي فيها اشارات إلى عدد من القضايا في عدد من النقاط :

١ ـ ففي بعض الحضارات يغلب الطابع المادي ، حتى ليصبغ الروحانيات بصبغته ، كما نلحظ في الحضارة الأوربية ، قديما وحديثاً . . وفي البعض الآخر اغراق في الروحانية ، كما هو ملحوظ في تراث الهند الحضاري . . أما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن ، الذي يوازن بين القطبين ويوائم بين النقيضين ، هو جوهر ما يميزها ، حضاريا ، عن غيرها من الحضارات في هذا الميدان . . وهذه القسمة المميزة لحضارتنا هي اضافة اسلامية اكتسبتها في عصر تبلورها العربي ، بعد أن كانت مواريث المنطقة الحضارية موزعة بين المغرق في الروحانية ، مثل المسيحية ، والمغرق في المادية ، مثل

اليهودية . . فهذه اضافة اسلامية نرى فيها ، بوضوح ، موقف القرآن الذي يوازن دائما بين الماديات والروحانيات . . اضافة طبعت الحضارة العربية الإسلامية بهذا الطابع المميز والخاص .

٢ ـ ونفس الموقف المتوازن نجده هو طابع حضارتنا حيال قطبي « العقل » و « النقل » . .

فعلى حين لا نجد « للنقل » مكانا مع « العقل » في الحضارة اليونانية ، ولا نجد « للعقل » مكانا مع النقل في الجانب الديني بالحضارات التي انطبعت بالمسيحية ، نجد الحضارة العربية الاسلامية ، انطلاقاً من الجوهر الأصيل والنقي للفكر الاسلامي ، تقيم توازنا دائما بين هذين السبيلين من سبل الاستدلال والهدية والإرشاد . . فالذين وقفوا عند ظواهر النصوص ، دون اعطاء العقل مجالا ، بالتأويل ، هم قلة في الحضارة والتراث . . والذين رفضوا النقل كلية لا نلحظ لهم مكانا في حضارتنا ، وان وجد لهم أثر فهو ، ولا شك ، أثر يوناني ، لا عربي . . على حين نجد التيار الغالب والطابع المميز في هذه الحضارة هو ذلك الذي وازن ما بين « العقل » و«النقل » و « الحكمة » و « الشريعة » على نحو جيد وجديد ! . .

٣ ـ ونفس الطابع المتوازن يطبع حضارتنا العربية الاسلامية في الموقف من « الدين » و « الدنيا » . .

ففي الحضارات ذات الطابع المادي تحول « الدين » الى « دنيا » ، والعكس نجده في الحضارات التي أغرقت في الروحانيات . . أما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن ربط بين « الدين » و « الدنيا » . . بين « عالم الغيب » و « عالم الشهادة » . . بين « النفس » و « البدن » ، على نحو قد لا يكون مسبوقاً في غيرها من الحضارات . . فالربط بين وجوب « الشعائر » الدينية ، وصحتها ، وبين اشباع « الاحتياجات المادية » وتوافر الظروف « الصحية » للانسان ، هو موازنة وتوازن . . وتقديم صحة الأبدان على صحة الأديان ، بمعنى ترتيب هذه على تلك ، لا بمعنى الاقتصار على تلك دون هذه ،

هو موازنة وتوازن . . وربط فرائض ، مثل الصوم والصلاة والحج . . الخ . . بظروف الانسان الدنيوية ، من اقامة وسفر ، وقدرة وحاجة . . الخ . . هو موازنة وتوازن . . وهذه الاضافة الاسلامية التي طبعت حضارتنا بالطابع المتوازن نجدها في الكثير من صفحات تراثنا ، من مثل تلك التي يقول فيها الامام الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) : « إن نظام الدين لا يحصل الا بنظام الدنيا . . فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن . . . فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . والا فمن كان جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة ؟ فاذن : **إن نظام الدنيا ، أعني مقادير الحاجة ، شرط لنظام الدين !** »[1] .

٤ ـ وكذلك توازن حضارتنا العربية الإسلامية بين « الفرد » و « المجموع » . . فلا تغرق في الميل لأحد القطبين على النحو الذي يضر فيعطل ملكاته ، أو يتيح الطغيان للنقيض . . بل لقد ربطت مصلحة « الفرد » ومصلحة « المجموع » وعلقت كلا منهما على الاخرى . . وعن هذه القسمة التي طبعت حضارتنا وميزتها نجد حديثا كثيراً في الكثير من صفحات التراث ، من مثل قول الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨ م) : « . . واعلم إن صلاح الدنيا معتبر من وجهين :

اولهما : ما ينتظم به أمور جملتها . . . . .

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من اهلها .

فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه، لأن من صلحت حاله، مع فساد الدنيا واختلال أمورها ، لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ، ويقدح فيه اختلالها ، لأنه منها يستمد ، ولها يستعد . ومن فسدت حاله ، مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولا لاستقامتها أثرا ، لأن

---

(١) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٥ طبعة القاهرة ـ محمود على صبيح .

الانسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ، ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه ، لأن نفسه أخصّ ، وحاله أمَسّ . فصار نظره الى ما يخصه مصروفا ، وفكره على ما يمسه موقوفا ! »[1]

٥ ـ وكذلك وازنت هذه الحضارة بين « السلم » و « الحرب » . . ففتوحات امتها كانت ، في الجوهر والحقيقة ، تحريرا وازاحة لموجات غازية عن ديارها ، ولم تكن ، في الجوهر والاغلب ، عدوانا . . وحتى ما كان قهرا من سلطانها وسلاطينها نزل بأقوام آخرين فان تاريخ القهر يصنفه بين أخف ألوانه وأقصدها في الغلو والمغالاة ! . . وهي صانعة حضارة تنشد « السلم » مناخا ضروريا لنموها . . هي تعد العدة حتى تنفي القتل والقتال بالاستعداد . . وهي تجنح للسلم اذا كان السلم هو العدل والحق لأصحابه . . وحضارتها ، عندما توازن بين هذين القطبين ، فانها تترجم عن شخصيتها ، فهي ليست أمة جبلية متوحشة وشرسة ، وهي ليست بالتي تستسلم للقهر وتفرط في الحق وتستكين للغزاة . . . ولعل النهايات التي انتهت اليها المناظرات الكثيرة في تراثنا بين « السيف » و « القلم » ، والتي مالت لتزكيتهما معا ، وربط الأولوية لكل واحد منهما بالظروف والملابسات ، لعلها من الشواهد على هذا الموقف المتوازن . . وهل ينكر منصف أن المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ ـ ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) قد أوجز هذا الطابع الحضاري عندما قال :

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير صديق في الزمان كتاب ؟!

٦ ـ وهي كذلك قد وازنت ما بين العمل « الذهني » والعمل « اليدوي » ، على نحو باعد بين موقفها هذا وبين موقف حضارة اليونان . . فعلى حين قدست الأخيرة العمل « الذهني » واحتقرت العمل « اليدوي » ، الذي قصرته على الرقيق ، نجد الحضارة العربية الاسلامية توازن بينهما ، حتى لتكاد تمزجهما مزجا . . وليس ذلك بالغريب على حضارة أمة ربط اسلامها بين الايمان والعمل ، وكان المبدعون لعلومها وفنونها : « علماء ـ تجاراً »

---

(١) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٤ تحقيق : مصطفى السقا . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

و « فلاسفة ـ أطباء » ، و « فلكيين ـ ملاحين » ، و « جغرافيين ـ رحالة » ، و « كيمائيين ـ يجرون التجارب » . . الخ . . . بل من الذي ينكر دلالة اشتغال نفر من ائمة التيار العقلاني من المعتزلة باجراء الملاحظات والتجارب على الحيوانات ، حتى ليستنكر الجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م) انكار من يستغرب ذلك فيقول : « إن علوم الحيوان هذه يتفرغ للجدال فيها الشيوخ الجلَّة والكهول العلية ، حتى ليختارون النظر فيها على التسبيح والتهليل ، وقراءة القرآن ، وطول الانتصاب في الصلاة ، وحتى ليزعمون أنها فوق الحج والجهاد ، وفوق كل بر واجتهاد ! . »[1] ولعله يريد ان يقول : إنها ، هي الأخرى ، عبادة وجهاد واجتهاد ! . .

وهذه الحضارة ، في موازنتها بين العمل « الذهني » والعمل « اليدوي » وعندما مزجهما معا ، وساوت بينهما في الشرف قد ذهبت الى الحد الذي جعلت فيه « العمل » ـ عموما ـ المعيار الذي يعطي الأشياء قيمتها ، وذلك على حد قول ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) : « إن ما يفيده الانسان ويقتنيه انما هو قيمة الأعمال الانسانية في هذه المقتنيات . . . »[2]

على هذا النحو ـ ومثله كثير ـ استطاعت الحضارة العربية الاسلامية ان توازن مواقف وقضايا وقيم ظلت في حضارات اخرى « متناقضات » لاسبيل الى التوفيق بينها . . ومن ثم فلقد اكتسبت طابعها المتميز هذا بين كثير من الحضارات . .

ولقد اسهم في ذلك وأعان عليه أنها قد تبلورت كوارث لمواريث حضارية متعددة ، وأيضاً متميزة . . فهي قد استفادت استفادة كبرى من المنابع الحضارية التي عاشت في المواطن التي كونت اجزاؤ ها امبراطورية العرب المسلمين . . والاسلام ، الذي كشف عن مميزات العرب ، قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خير ما في علوم مصر وحكمة الصين وفلسفة الهنود وسياسة الفرس ، وتراث اليونان ، ثم أخذ يضيف اليها ، اخيراً ، ما دلته عليه الكشوف الحديثة

(١) (الحيوان) ج ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ، الثانية .
(٢) (المقدمة) ص ٣٠٣ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

من نواحي عبقرية المصريين القدماء . .

وهـذه الميـزة التي امتـازت بهـا حضـارتنـا ليس مـبعـثهـا المـوقـف « الانتقـائي ـ التلفيقي » ، وانما مـردها الى الـطابع التحـرري الـذي حكم بنـاء الدولة العربية منذ الفتوحات العربيـة الاسلاميـة الأولى ، وهو طـابع جعـل من هذه الدولة الوارث الشرعي للمواريث الحضارية لأمم المنطقة ، ولم يجعلها ، كما كانت بيزنـطة ، مثلا ، القـوة القاهـرة التي تفرض طـابعها الحضـاري ومذهبهـا الـديني على الآخـرين . . ومرد هـذه الميـزة كـذلـك مـوقف « العـدل ـ القسط ـ الوسط ـ » الذي غلب على نهج العرب المسلمين في التفكير ، وهو الموقف الـذي رفض التطرف المغالي ، واختار « الحق » الذي يتوسط ، دائما بـاطلين ، ولذلـك رأيناه وهو يختار « التوسط » يأخذ من قطبي الظاهرة وطرفيهـا « النقيضين » ـ مـا يمكن أن يمازج ويمتزج « بالوسط ـ العدل ـ القسط » فيكون معـه الاختيار المتميـز ذا الطابع المتـوازن . . ولقد اتـاح هذا النهـج لأصحابـه الاستفادة من العنـاصر المتعـددة والقيم المتنوعـة ، وهيأ لهـا مناخ التفـاعل والائتـلاف حتى صارت بنـاء حضاريا متميزا إلى حد كبير .

إذن . . . فنحن امام حضارة عريقة . . . وذات طابع متميز . . وسبق أن تخطت الحدود السياسية والقـومية لأمتهـا فنهضت بدور رائـد وملحوظ في العـطاء الحضاري الانساني . . ولهذه الحضارة أمـة كبرى ، تؤلف بينهـا قسمات خـاصة لقومية واحدة، ولهذه الأمة، غير هذه الحضارة، امكانيات كثيرة، الأمر الذي ينبىء ، عـلى نحو صـادق ومحقق ، ان تحقق شروط معينـة سيجعل هـذه الامـة تنهض من مرقدها ،لا لتتحرر وتتحضّر فقط ، بل ولتسهم حضـاريا في السـاحة الانسانية من جديد ، ولتمارس في هذه الساحة ، حضاريا أيضاً ، دورا هو أشبه بدور « الضمير » ! . .

ومن هنـا كان الحـرص ، الـرقيق والعنيف ، الخفي والمعلن ، من أعـداء كثيرين يخشون المزاحمة ، وينفـرون من « الضمير » ! . . حـرصهم على ان تـظل هـذه الامـة اسيـرة في مـرقـدهـا ، تشـدهـا الى الخلف مـا فـرضـوه عليهـا من تحديات . . .

ومن هنا ، ايضاً ، كانت أهمية اكتشاف هذه الأمة للقانون الذي حكم صراعها التاريخي ضد التحديات التي فرضها على اسلافها أسلاف هؤلاء الأعداء . . ذلك أن تغير الصراع ، وتطور أسبابه وملابساته ، وتبدل بعض الفرقاء والأطراف فيه ، لا ينفي الوحدة والعموم في القانون الذي حكم أدواره وسيطر على أحداث حلقاته على مر التاريخ . .

وبالطبع ، فان الوصول إلى اكتشاف هذا القانون مرهون بالوقوف امام اهم وأخطر ما واجهته هذه الأمة ، عبر تاريخها ، من تحديات . . .

obeikandl.com